

المعتقلات الفرنسية في الجزائر خلال الثورة التحريرية :

قصر الطير أنموذجا

أ. فارس العيد

جامعة تبسة

سارعت السلطات الاستعمارية مع بداية الثورة التحريرية إلى اتخاذ سلسلة من التدابير والإجراءات التعسفية في محاولة منها للقضاء على الثورة وإخمادها في مهدها، فقامت بحملات عسكرية واسعة النطاق في المدن والقرى والمناطق التي انطلقت منها الثورة، كما فرضت حالة الطوارئ وأخذت في فتح مراكز التعذيب وأبواب السجون وإنشاء المعتقلات والمحتشدات، ولقد كان هدف السلطات الفرنسية من إقامة هذه السجون والمعتقلات هو قمع الروح الوطنية لدى الجزائريين ومحاولة القضاء على المد العسكري والسياسي للثورة التي بدأت في إنهاء أطروحة الجزائر الفرنسية.

وقد استخدم الاستعمار الفرنسي منذ احتلاله للجزائر عام 1830 مختلف أساليب القهر والاضطهاد والقمع والترهيب والاغتيال والتعذيب ضد الشعب الجزائري هذه الأساليب التي تطورت في نوعيتها وحجمها، وتفنن الجلادون في استخدامها خاصة خلال الثورة التحريرية (1954-1962)، وأمام تصاعد العمل الثوري والنشاط العسكري في الجزائر بادرت الإدارة الاستعمارية إلى تأمين الوسائل المادية والبشرية والعسكرية وإنشاء نظام قانوني استثنائي لمجابهة جبهة وحيش التحرير الوطني (سليمان، أ. 2003: 218)، ومن هذه القوانين نذكر قانون حالة الطوارئ الذي أعلن في 04/3/1955 والذي تم تعميمه ليشمل كل الأراضي

الجزائرية بقراري 1955/4/6 والذي تم تعميمه و1955/5/28، وبالتالي تطبيق أسلوب القمع على أوسع نطاق ، كما حصلت الحكومة الفرنسية برئاسة "قي مولي" من الجمعية الوطنية الفرنسية بتاريخ 1956/3/16 على "سلطات خاصة" تسمح لها باتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة الظروف والتطورات ومن أجل إعادة النظام وحماية الأشخاص والممتلكات وصيانة الأرض(بوعلام، ن. 2007: 151- 218) وهذا يعني أن السلطة التشريعية الفرنسية منحت السلطة التنفيذية الصلاحيات الكافية لكي تتخذ كل تدبير ضروري لحفظ النظام في الجزائر كما منح هذا القانون للوزير المقيم في الجزائر روبر لاكوست ، والذي عين بقرار 15 فيفري 1956 حاكما عاما للجزائر صلاحيات خاصة ثم التعليمية الوزارية الصادرة عنه والتي تخول المسؤولية الكاملة لإعادة استتباب الأمن وحفظ النظام إلى الجيش الفرنسي وهذا بتاريخ 1956/5/7 (سليمان، أ. 2003: 219) وبذلك وفرة السلطات الفرنسية الغطاء القانوني لممارسي الإجراءات التعسفية في حق المعتقلين الجزائريين ، بل و أصبح جلادو الاستعمار يتفنونون في ابتكار وسائل وطرق التعذيب خاصة ضد المعتقلين السياسيين والعسكريين من أعضاء جبهة وجيش التحرير الوطني مع الإشارة إلى أن عمليات الاستتطاق والتعذيب أثناء الثورة كانت تجري في كل مكان فحيثما وجد المواطن الجزائري يعذب ويستتطق، في البيت، في الشارع التجميع والفرار وغيرها (قوي، س. 2002: 26).

1- انشاء معتقل قصر الطير:

يقع مركز التعذيب قصر الطير ببلدية قصر الأبطال - قصر الطير سابقا - بدائرة عين ولمان على بعد حوالي 30 كلم جنوب مدينة

سطيف، وخلال الثورة كان ضمن الناحية الثالثة للمنطقة الأولى بالولاية الأولى، و يرجع تاريخ بناء قصر الطير إلى العهد العثماني في القرن 17م وسبب التسمية قصر الطير يعود إلى وجود بناية شاهقة بلغ ارتفاعها حوالي سبعة أمتار كانت الطيور الجارحة تبني فيها أعشاشها وكان الصيادون يتوافدون عليها للقنص في أوقات الصيد فسميت المنطقة بذلك الاسم، وبعد اندلاع ثورة نوفمبر 1954 م، عمدت السلطات الفرنسية الى تحويله الى مركز للتعذيب عام 1956 م، ثم تم تحويله إلى معتقل للمجاهدين الأسرى اعتبارا من سنة 1957م، والمعتقل كما يروي عنه يختلف كثيرا عن باقي المعتقلات الأخرى، إذ جعلت منه فرنسا أنموذج للمعتقلات النازية خلال الحرب العالمية الثانية (عزوي، م. 1988: 78 - 86).

ومن الأسباب الرئيسية التي دفعت الإدارة الاستعمارية إلى إنشاء معتقل في قصر الطير رغبتها في القضاء على الثورة في الولاية الأولى (محمد أ. 2004: 87)، نظرا للضربات القوية التي وجهها مجاهدي المنطقة لقوات المستعمر الفرنسي، فبالرغم من الصعوبات الكبيرة التي واجهها المجاهدون في التنظيم و التموين بالأسلحة والمؤن إلا أنهم تمكنوا خلال السنوات الأولى للثورة من إيقاع خسائر كبيرة بالعدو ومن أهم العمليات التي شهدتها المنطقة هجومات 20 أوت 1955م (موسى ت- رابح ع. 1992: 16)، يضاف إلى ماسبق طبيعة الموقع الاستراتيجي للمنطقة باعتبارها ذات أراضى واسعة ومنبسطة ومكشوفة وهي بعيدة عن الجبال والمسالك الوعرة والغابات الكثيفة، كما أنها بعيدة عن التجمعات السكانية مما جعلها بمنأى عن أي هجوم وبعيدة عن الأنظار بحيث لا يعلم ما كان يجري فيها إلا من كان بداخلها، كما أن الظروف المناخية القاسية

للمنطقة و المتميزة بالبرودة الشديدة شتاء والحرارة المرتفعة صيفا كانت من العوامل المساعدة على التعذيب والتكيل والقهر (عائشة، ش. 1991: 8) ، فقد كانت الإدارة الاستعمارية تهدف من وراء إقامة المعتقلات إلى إبعاد العناصر الحية عن الإسهام المباشر في الثورة باستخدام أساليب الإرهاب والقمع والتخويف، قصد إيصال هذه العناصر إلى السقوط وانهايار معنوياتها وبالتالي ضمها إلى الجانب الفرنسي ، وكذا بث التفرقة السياسية وإثارة النعرات الجهوية وخلق التضارب بين أبناء البلد الواحد للقضاء على الوحدة ومنع الشعب من الالتفاف حول جيش وجبهة التحرير الوطني (الأطرش، م. 1984: 96) ، فالهدف الأساسي للسلطات الفرنسية هو قمع الروح الوطنية لدى الجزائريين ومحاولة القضاء على لهيب الثورة والمد العسكري والسياسي اللذان أصبحا يسيران بخطى ثابتة نحو الاستقلال.

كان معتقل قصر الطير يتكون من 30 بيتا مقسمة إلى 9 أقسام سميت بالأحرف اللاتينية من حرف A إلى حرف I وتبلغ مساحته حوالي 12 هكتار وهو محاط بثلاثة أنواع من الحواجز:

- الحاجز الأول عبارة عن أسلاك شائكة تحيط بالمعتقل، يبلغ عرضها ستة أمتار ملغمة ومجهزة بالأضواء الكاشفة.
- الحاجز الثاني عبارة عن خط إنارة يحيط بالمعتقل.
- الحاجز الثالث عبارة عن سياجين من الأسلاك العادية غير الشائكة يتوسطها الكلاب البوليسية التي تجوب الممر دون توقف (بوالصفاصاف، ع. 1998: 186).

وإلى نهاية 1959 كان عدد المعتقلين في قصر الطير يبلغ 200 شخص من المجاهدين الفدائيين والمواطنين العاديين وأغلبهم من أبناء تلك المنطقة ويقوم على حراستهم كتيبة من جنود العدو عدد أفرادها 110 جنديا على أنه بعد هذه السنة 1959 ازداد عدد المساجين بعد أن أصبح العدو يحول المعتقلين إلى قصر الطير من مختلف جهات الوطن وعن دخوله المعتقل، يقول المجاهد محمد بوقصة ما يلي: "دخلنا القصر في 5 أوت 1958 ووجدت فيه العديد من المجاهدين فمنهم من كان من الولاية الأولى ومنهم من كان من الثالثة والثانية أما جنود العدو فيزيد عددهم على كتيبة مدعمة بالسيارات المصفحة..." (بوالصفصاف، ع. 1998: 188).

وكان العدو الفرنسي بعد أن يلقي القبض على المجاهدين في المعارك يقوم بتجميعهم في مراكز خاصة للاستتطاق والتعذيب ثم يصنفهم بعد أن يصل عددهم إلى 100 أو 150 مجاهدا أسيرا لتسيير نقلهم إلى معتقل قصر الطير خاصة الذين كانت الإدارة الاستعمارية تصنفهم بالمتشددين أي الثابتون على المبادئ الثورية (عزوي، م. 1993: 56).

2 - مرافق المعتقل:

تم بناء معتقل قصر الطير بسواعد الأسرى المعتقلين فقد كانوا يحفرون التراب ويعجنونه بالماء ويمزجونه بالتبن ثم يصنعون الطوب وعندما تجف ينقلونها على أكثافهم وبينون بها المساكن وكان كل مسكن يحتوي على 16 بيتا ومطبخ ومطعم ويأوي 200 أسير على جانب مساكن الإدارة الفرنسية وكان الأسرى يأتون بالحجارة من الوادي المجاور ثم يقومون بتفتيتها إلى حصى صغيرة، وغريلة الرمل ومزجه بالاسمنت وتحويله إلى طوب لتبنى به مساكن الجنود (عائشة، ش. 1991: 8).

ويعد معتقل قصر الطير من أكبر السجون الاستعمارية التي شيدت أثناء الثورة التحريرية وهو يضم العديد من الهياكل الرئيسية في كل منها اثنا عشر زنزانة ومكاتب للتعذيب والاستتطاق و ساحة الأشغال الشاقة و ساحة تعذيب وكذا قاعة الدعاية والتدريس وغسل الدماغ والمطبخ والمرحاض الجماعي إضافة إلى ساحة رفع العلم و ساحة لتكسير الحجارة و قاعة سينما تعرض فيها أفلام الدعاية الاستعمارية و مجمعات سكنية خاصة بالمعتقلين وكذا مساكن الضباط ومركز القيادة ومركز الذخيرة وبنائات إدارية مختلفة وحتى سكنات للحركى وإسطبلات لجمع المواشي وتربية الخيول ومخازن لجمع الحبوب إضافة إلى ستة أبراج مراقبة مجهزة بالأضواء الكاشفة (بوالصفصاف، ع . 1998 : 200).

1-المطعم: هو في الواقع عنوان لهيكل غير موجود باعتباره يبقى مغلقا طوال السنة ومن يراه يحسب أن المعتقلين يتناولون فيه الطعام وشرابهم، لكن في الحقيقة هو أنه أقيم لتضليل الزوار الأجانب أو الهيئات التي تقوم بزيارة المعتقل لا أكثر، أما المطبخ فكان عبارة عن بيت صغير به أدوات ووسائل تقليدية يعلوها الصدا و يلفها الغبار والأوساخ ويشرف عليه أحد المعتقلين الذين تأثروا بالحروب النفسية واختاروا الانضمام إلى صفوف العدو داخل المعتقل(عزوي، م. 1993 : 57).

2-المرقد: وهو عبارة عن مجمع مقسم إلى عدة أجنحة وكل جناح مقسم إلى عدة بيوت منفصلة عن بعضها بجدران لا تسمح للمعتقلين بالحديث مع بعضهم البعض وتقدر مساحة كل بيت 15 م² طوله 4 أمتار وعرضه ثلاثة أمتار وارتفاعه متران أرضيته مفروشة بالاسمنت ليكون

باردا وسقفه بالزنك ليعكس الحرارة صيفا وقساوة البرد شتاء ولا يتوفر على نوافذ للتهوية وفي كل بيت ثمانية أسرة من الخشب المتآكل بالسوس، تتخلله الحشرات البق والقمل ويسيطر البعوض على سقفه من الداخل ويوجد على كل سرير حصير رقيق صنع من السمار من طرف المعتقلين(عزوي، م. 1993: 57)، وكانت إدارة المعتقل تسلم للأسرى المجاهدين غطاء واحدا يبقى مع كل واحد منهم طوال السنة بلا تنظيف ولا تجديد وتفتقد هذه المراقد إلى الإنارة ويعاني فيها المعتقلين من ضيق التنفس والأوساخ والروائح الكريهة وانتشار الحشرات في كل أرجاءها(عزوي، م. 1993: 58).

3-المرحاض: لا توجد مراحيض بالمفهوم المتعارف عليه بين الناس وإنما توجد صهاريج حديدية سعة 55 لتر ، وضعت في زاوية الجناح مكشوفة دون غطاء أو ستر مما يجعل المتجه إليها بدافع الحاجة يتسبب عرقا من شدة الحياء كما يصاب من جراء ذلك بأمراض وحروق في العينين بسبب الروائح الكريهة التي تنبعث من الصهاريج الذي يبقى لأيام دون تفريغ مما يزيد من معاناة المعتقلين(عزوي، م. 1993: 59).

4-الحمام: يعتبر الحمام داخل معتقل قصر الطير أحد وسائل التعذيب النفسي والجسدي حيث كان المعتقلون أثناء الاستحمام إذا طلبوا الماء البارد الفاتر في فصل الصيف يطلق عليهم ماء ساخن جدا وإذا طلبوا الماء الساخن في فصل الشتاء يطلق عليهم ماء جد بارد، وهو ما يتسبب في الحروق الجلدية التي تحدث تشوهات خطيرة ينتج عنها سيلان الدم إلى جانب انتشار الأمراض الصدرية والسعال والتهاب الحنجرة وغيرها، كما

يشترط عليهم في هذا الجو اللاإنساني كشف عوراتهم ومن خالف ذلك يعرض نفسه لعذاب شديد (عزوي، م. 1993: 59).

5- قاعة غسل المخ: وهي عبارة عن بهو فسيح يتسع لأكثر من مائة مقعد بها سبورة ومصطبة ومكتب للمدرس تقدم فيها دروس يومية صباحية مدة الحصة ساعتان، تتمحور حول تمجيد فرنسا وإنجازاتها في الجزائر وفي نفس الوقت تسيء بهذه الدروس إلى الثورة الجزائرية وقادتها والمتعاطفين معها وتقدم هذه الدروس باللغتين الفرنسية والعربية البسيطة وبطريقة ذكية ويؤثر يغلب عليها طابع الخطابة وكل ذلك كان بقصد استمالة بعض المعتقلين والاستحواذ على عقولهم بشتى الوسائل والطرق وبمختلف عوامل التأثير، لغسل أمخاخهم وتحويل أفكارهم عن الثورة (عزوي، م. 1993: 60).

وفي نهاية الأسبوع يجري الاختبار لمعرفة ما إذ كان المعتقل المستهدف قد استوعب ما لقن له خلال الأسبوع المنصرم وتتواصل العملية لعدة شهور، دروس تتلوها اختبارات في نهاية الأسبوع إلى أن تحصل النتيجة بفعل الاستمرار والتكرار فتتغير مواقف بعض المعتقلين الذين تأثروا بما قيل لهم من المدرسين النفسانيين وتستمر الضغوط النفسية عليهم حتى ينهاروا ويرتموا نهائيا في أحضان العدو الفرنسي فيتم استخدامهم في عمليات التأثير على بقية المعتقلين، أما الذين لم يتأثروا بتلك الدروس ولم يخضعوا للتأثيرات والضغوط النفسية فتستمر معهم المحاولات دون كلل أو ملل بمعزل عن المتخاذلين على إذ يئسوا منهم حولوا إلى أماكن خاصة للتعذيب تناسب تصليهم وثباتهم على المبدأ الثوري (بوشارب، ب. 1986: 21)

6-الزنزانات: تميزت زنزانات معتقل قصر الطير بخصائص تتفرد بها عن قاعات التعذيب بالماء والكهرباء والغاز بمعتقلات النازية في ألمانيا أوروبا ويبلغ طول كل زنزانة 1.20 م وعرضها 80 سم وارتفاعها أزيد من متروهي خيالية من النوافذ فلا يدخل الهواء إلا من الفجوات والشقوق في أسفل الباب الخشبي وهي مفروشة بالحصى من مختلف الأحجام والأسلاك الشائكة مثبتة على سقفها ومغطاة من الخارج بالقصدير وجدرانها ملبسة بالطين (محمد، أ. 1997: 192- 194)، ولا يسمح للسجين بالخروج منها إلا مرة واحد كل ثلاثة أيام لرمي فضلاته من العلبة التي سلمت له، وإمعانا في الإهانة وتحطيم الكرامة الإنسانية، لا يسمح له تفصيل تلك العلبة من تجعل الرائحة الكريهة ملازمة له على الدوام، وعندما يلاحظ الجلادون الرائحة أخذت تتبعث من أجسام المعتقلين يأخذونهم إلى حوض ما للاغتسال ولكن بصورة جماعية وهم عراة (عبد القادر، م. 1988: 51).

7-السيلون الأحمر: وهو مبنى خاص للتعذيب منفصل عن باقي المجمعات مطلي باللون الأحمر واللون الأحمر وحده كاف بأن يعطي أكثر من تعبير وهي عملية نفسية ترهيبية تجري فيه أصناف العذاب النفسي والجسمي والأفعال اللاأخلاقية وكذلك لإرغام المعتقلين على الاستسلام لإدارة فرنسا (عزوي، م. 1993: 61- 62).

8-المصحة: يوجد بالمعتقل مستوصف واحد بناه المعتقلون بسواعدهم وهو مقسم إلى عدة حجرات واحدة للفحص وأخرى للإسعاف أن يتم فيها التمريض والتضميد والحقن بالإبر وغرفة خاصة بالصيدلية فيها بعض الرغوف وزعت عليها علب من الأدوية التي تعالج السمونة والمواد الدهنية

التي تجعل الشعر وتميع الجلد مما يجعله رطباً لنا ووجود هذه المواد في مجملها لا علاقة له بصحة المعتقلين ولا بالأمراض التي يعانون منها في هذا الجحيم ويحرره عليهم دخول هذا المستوصف إلا في حالات نادرة حيث يصل فيها المعتقل إلى حافة الموت ففي تلك الحالة تقدم للمريض الإسعافات الأولية لإنعاشه وإعادته على الحالة التي كان عليها ليعاد إلى العذاب من جديد وهكذا ، أما وسائل العلاج فما كان منها لا يصلح للاستعمال لأن مدة صلاحيتها تجاوزها الزمن من طول بقائها في الرفوف دون استعمال(عزوي، م. 1993: 72).

3 - طبيعة الحياة داخل المعتقل:

تعكس الحياة في السجون والمعتقلات أثناء الثورة التحريرية عن حياة ثرية بصور ومواقف النضال والكفاح المستميت والتحدي للإدارة الاستعمارية التي اتخذت من القسوة الفضيعة والتعذيب الشنيع وامتهان الكرامة الإنسانية عرفاً وقانوناً ومع ذلك فهي مرحلة يقفز بها كل معتقل لأنها فترة تجسد الإرادة والصمود اللتين مكنتا المعتقلين من تحويل السجون والمعتقلات إلى معازل للكفاح والمواجهة مع الإدارة الفرنسية إيماناً منهم بأن الكفاح سلسلة متصلة الحلقات ولا يسمح لأي مناضل صادق ومخلص أن يستسلم أمام قساوة الحراس والجنود الذين انتقلوا من عالم المخلوقات العادية إلى كائنات شاذة سادية همهم التفتن في تعذيب المعتقلين العزل(الجنيدي، خ. 1986: 90- 91).

وكانت الحياة في معتقل قصر الطير تشبه إلى حد كبير ما كان تجري في معتقلات النازية خلال الحرب العالمية الثانية فقد عانى المجاهدون الأسرى ما يفوق الوصف ويعجز عه التعبير فاللباس الذي كان

يرتديه المعتقلون هو من مخلفات الحرب العالمية الثانية ومن لون عسكري يحمل علامة رقم واحد في الظهر وهو من صنع إنجليزي يتكون من سروال وسترة فوقية وحذاء يستمر مع المعتقل طوال السنة دون تبديل وحينما يوزع على المعتقلين لا يراعي فيه القياس فالحذاء قد يكون واسعا وقد يكون ضيقا يعيق عن المشي بسهولة كما السروال تارة يعرقل الحركة بضيقه ، أما السترة فأحيانا تكون قصيرة وأحيانا أخرى تكون طويلة تتدلى على الأرجل وهذا اللباس مهين شأنه أن يجعل صاحبه مثيرا للسخرية ويستغل لهدف مقصود وهو قتل الإحساس والشعور بالكرامة لدى المعتقلين(بوشارب ، ب. 1986 : 22).

1- نظام الأكل: كان يقدم الأكل داخل المعتقل في أواني قديمة وهي عبارة علب الطماطم والسردين وملعقة لا يراعى فيها النظافة لأن الماء غير كاف للشرب فما بالك بتنظيف الأواني من الأوساخ ، أما نوعية الأكل ففي الفطور يحصل المعتقلون على قليل من القهوة والغذاء عبارة عن مرق ممزوج بقليل من الحمص أو العدس أو الفاصوليا وبدون ملح لمدة أسبوع وأحيانا أسبوعين وفي المرات تكون الوجبة مالحة جدا في نفس المدة وهي على قلتها وعدم فائدتها الغذائية يحرم منها المعتقلين أياما وقد مات العديد منهم بسبب الجوع وأغمي على البعض الآخر(بوشارب ، ب. 1986 : 23).

أما في شهر رمضان فالظروف لا تختلف عن بقية الشهور فالمعتقلون يصومون رغم ما يعانونه من الجوع والتعذيب بالأشغال الشاقة وكانت ادارة المعتقل تفرض عليهم الجمع بين الفطور والسحور معا ولا يتسلم

الواحد منهم إلا لترا واحدا من الماء خلال 24 ساعة يشرب ويغسل ومنه يتوضأ للصلاة(عزوي، م. 1993 : 65).

2- نظام النوم: كانت المراقد توجد في كل مجمع وهي مقسمة إلى عدة أجنحة للنوم وكل جناح مقسم إلى أربعة بيوت وكل بيت فيه ثمانية أسرة مركبة فوق بعضها وعلى كل منها حصير من السمار صنعة المعتقلون وهذا الفراش مع ما يحدثه من الأضرار الجسيمة مملوء بالحشرات المختلفة التي تزيد من عذاب وآلام المعتقلين وهناك الكثير من المعتقلين يفترشون الورق المقوى والأكياس التي يجدونها بين الفضلات، أما الغطاء عبارة عن نصف غطاء لكل معتقل وهي من بقايا قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وتبقى مع المعتقل سائر فصول السنة وهذا الغطاء لا يقي من البرد والذي يميز الهضاب العليا شتاء مع العلم أن التدفئة منعدمة وفي فصل الصيف حيث ترتفع درجة الحرارة ترى المعتقلين يتصببون عرقا ويشعرون بالاختناق من قلة الأوكسجين فضلا عن الحشرات التي تهاجم النائمين باللسع والوخز مما يزيد من معاناتهم لكن المعتقلين وبحكم الحاجة يضعون مصابيح زيتية من علب التبغ "الشمة" التي يسرقون لها الزيت من المطبخ ويشعلونها في أوقات ضيقة جدا وذلك بقصد قراءة بعض المنشائر أو البيانات و بها يستعينون لمحاربة الحشرات أيضا(عزوي، م. 1993 : 66).

3- المصححة في المعتقل: رغم وجود مستوصف في المعتقل فإن المعتقلين لا يستفيدون من خدماته إلا في حالات نادرة يصل فيها المريض منهم إلى حالة الخطر المنذر بالموت، أما وسائل العلاج فالموجود منها لا يصلح للاستعمال باعتبار مدة صلاحيتها تجاوزها الزمن من طول بقائها في

الرفوف بسبب سوء استهلاك وبالتالي انتشار الأمراض بكثرة نتيجة نقص المناعة بسبب سوء التغذية والإرهاق الجسمي وانعدام النظافة أما الأمراض الشائعة بين المعتقلين فهي: السل والربو والرمد الحبي والتهاب العينين والجذام والجرب والحساسية ومرض الصفير وضغط الدم والأعصاب والزكام الدائم والتهاب الحنجرة والمعدة وداء المفاصل وأمراض القلب(عزوي، م. 1993: 72).

4- النشاطات الثقافية: رغم أن إدارة المعتقل كانت لا تسمح بأي نشاط ثقافي داخل المعتقل وتمنع المعتقلين من حيازة أي شيء له علاقة بالقراءة والكتابة والتعليم، وحتى قصاصات الجرائم الممزقة لا تسمح بالتقاطها ولا بالنظر فيها، فإن المعتقلين يحاولون جاهدين تلقين بعضهم المبادئ الوطنية وحث أنفسهم على الثبات والمقاومة وحفظ الأناشيد الوطنية مستعينين في ذلك بالكتابة على الجدران وبمصباح علبة "الشمعة" أثناء الليل في المراقد وهذا ما قوى أملهم في الحياة وخفف عنهم بعض المعاناة ومكنهم من إفشال جميع المحاولات للنيل من شخصيتهم وتحطيم مغنوياتهم وزعزعة ثقتهم بأنفسهم (عزوي، م. 1993: 73).

5- الشعائر الدينية:

أ- الصلاة: رغم القمع المسلط على المعتقلين والأشغال الشاقة التي يرهقون بها فإنهم كانوا يؤدون الصلاة حتى وإن كانت إدارة المعتقل قد منعت عنهم حتى أحجار التيمم باعتبار أن كمية الماء الممنوح لكل معتقل وهي 1 لتر خلال 24 ساعة لا تكفي ومع ذلك يجتهد لهم بأداء الصلاة جماعية وكانوا يجمعون الصلاة النهارية في الليل لأنهم كانوا يرهقون

بالأشغال الشاقة نهارا ومن ضبط يصلي في النهار فإنه يعاقب عقابا شديدا (بوشارب ، ب. 1986 : 23).

ب- الصيام: كان المعتقلون يصومون شهر رمضان رغم الأشغال الشاقة والعذاب المسلط عليهم، متحدين العدو الذي كان يقصد من وراء ذلك صرفهم عن أداء ما فرض عليهم في هذا الشهر المبارك وعندما يحل المغرب يفطرون على قليل من العدس أو الحمص أو الجلبانة مع قطعه من الخبز وبعد الانتهاء مما يمكن تسمية تجاوزا وجبة الفطور والسحور معا لأن إدارة المعتقل تفرض عليهم ذلك كان المعتقلون يجتهدون في أداء صلاة التراويح فرادي، حتى بالنسبة لمن لا يعرق إلا سورة الفاتحة فقط (بوشارب ، ب. 1986 : 23).

6- الأشغال اليومية:

وهي موزعة بين المعتقلين بحسب تصنيفهم بين الأشغال الكبرى والوسطى والصغرى ولا يعفى منها أحد حتى ولو كان مريضا وهي كما يلي:

أ- الأشغال الكبرى: تتمثل الأشغال الكبرى أو الشاقة في صناعة الطوب ونقله والبناء له ثم تهشيمه وتكسيه من جديد ويجبر المعتقلون الثابتون على المبدأ الثوري على الحفر والردم والتنظيف دون راحة ومن كسر منهم ذراع فأس أو مجرفة بالمصادفة ومن دون سبب فإن الجميع يتعرض للعقاب ويمنعون من الأكل والشرب ويزج بالكثير منهم في الزنزانات وذلك يهدف إثارة العداوة والبغضاء بين المعتقلين للانتقام من زميلهم الذي تسبب لهم في العقاب الجماعي، لكن المعتقلين تفتنوا لهذا السبب الخبيث مفوض أن يقاطعوا المتسبب أصبحوا يتضامنون مع بعضهم

فخبيوا بذلك مساعي العدو فيما كان يهدف إليه من تمزيق الوحدة والتضامن داخل المعتقل (عزوي، م. 1993: 75).

ب- **الأشغال الوسطى:** وهي من الأعمال الفنية يقوم بها المعتقلون الضعفاء جسديا والعاجزون عن الأشغال الكبرى وتتمثل في جمع التبن وتفتيته ونقل الماء وتكسير الحجارة وذر التراب ونقل الحصى وهي أعمال يرمي العدو من ورائها إلى إذلالهم وتحطيم معنوياتهم (عزوي، م. 1993: 76).

ج- **الأشغال الصغرى:** تعتبر من الأعمال الخفيفة يقوم بها بعض المعتقلين كتطهير الفناء، وجمع الفضلات ورمي القمامة وقد أتاحت هذه الأشغال المكلفين بها التقرب من الجنود الفرنسيين وكسب ودهم مما سمح لهم بالحصول على بعض المعلومات العامة حول الأوضاع والأحداث الجارية بالإضافة إلى التجول داخل المعتقل وبالتالي مكنتهم من التعرف على العديد من المعتقلين ونقل أخبارهم إلى زملائهم وتبادل المعلومات والأخبار بينهم (عزوي، م. 1993: 77).

7- المراسلات والزيارات:

إن المعتقلين بقصر الطير كانت تفرض عليهم العزلة التامة والرقابة الصارمة والحصار الشديد فلا يسمح لهم بالمراسلة ولا يستقبلون ذويهم وبالتالي لا يعرف عنهم هل أحياء أم أموات (بوشارب، ب. 1986: 23)، وفي أثناء هذه العزلة التي قد تستمر أكثر من سنة تجري عليهم عمليات غسل المخ والتي يتم من خلالها الاطلاع على أفكار المعتقلين ثم يسمح لهم بمراسلة ذويهم الأقربين وذلك بمعدل رسالة في كل فصل والتي تمر على الرقابة ويشترط ألا يتعدى مضمونها السؤال عن أفراد

العائلة صحة وممرضا أما إذا فيها شيء من غير هذا القبيل فإن الرسالة تمزق ويتعرض صاحبها في المعتقل إلى العقوبة بالضرب أو وضعه في الزنزانة ثم تنقطع المراسلة بعد ذلك فصل أو فصلين دون معرفة السبب من كلا الطرفين. أما الزيارات فلم يسمح بها المعتقلين إلا في بداية 1961 وهو تاريخ استئناف المفاوضات الجدية بين الحكومتين الفرنسية والجزائرية، وبمعدل مرة واحدة في الشهر وكانت إدارة المعتقل تطلب من الأهالي الزائرين إقناع ذويهم من المعتقلين بقبول سياسة فرنسا والانصياع لإدارتها وإذا لم يقبلوا فإن الزيارات تتوقف وحتى المراسلات تمنع عنهم مدة من الزمن عقوبا لهم (عزوي، م. 1993: 67).

8- انتقال الأخبار بين داخل المعتقل وخارجه:

رغم أن إدارة المعتقل كانت تفرض رقابة صارمة فإن الأخبار كانت ترد إلى المعتقل وتخرج منه، فالأخبار الرافدة من خارج المعتقل كانت تتم عن طريق الرسائل التي تلف في السجائر والعلب التدخين وترد بواسطة بعض المعتقلين الذين يخرجون لممارسة الأشغال أو بواسطة من ذهبوا إلى العلاج في المستوصفات أو بناء بعض المباني ومن ثم يتمكن هؤلاء مهن جمع أخبار الثورة ونشرها داخل المعتقل بطرقهم الخاصة كما تفيد الأخبار إلى المعتقلين عن طريق مهن كانوا يذهبون منهم إلى رمي القاذورات والأوساخ وأيضا عن طريق المعتقلين الجدد وحتى من بعض الحراس الذين تصاحبوا مع بعض المعتقلين، أما الأخبار الصادرة من داخل المعتقل إلى الخارج فكانت تتم عن طريق المعتقلين الذين يقصون نهارهم في الأشغال الشاقة خارج المعتقل فيسربونها للمواطنين الذين وثقوا بهم أو عن طريق المعتقلين الفارين، أما الانتقال الأخبار بين المعتقلين فكانت

صعبة بالنظر إلى صعوبة يتبدلون الأخبار المنع والحواجز والرقابة المستمرة ومع ذلك كلن المعتقلون يتبادلون الأخبار بواسطة الرموز والإشارات وبعض الحركات مثل مسك الأنف وكانوا يقصدون به الجنرال ديغول وعن طريق المعتقلين المسخرين للأعمال الصغرى الذين يسمح لهم بالتجول في أنحاء المعتقل بالنظر إلى طبيعة أعمالهم(عزوي، م. 1993: 71).

9- الظروف النفسية للمعتقلين:

كانت إدارة المعتقلات تحرص على إحداث جو من الرعب الدائم و النهائي و المحافظة عليه مما كان يؤدي ببعض المعتقلين إلى الاختلال الذهني(بوعلام، ن. 2007: 158) ، فكانت الظروف النفسية تختلف باختلاف نوع المعتقلين فالبعض يترقب الانتصار والبعض الآخر يترقب الخروج وذلك بما يتلقاه من الوعود عن طريق الإدارة الاستعمارية والبعض ينتظر العذاب مرة أخرى فيكون اليأس والقلق مسيطرًا على الجميع (عزوي، م. 1993: 88).

ومهما تكن معنويات المعتقل فإنها تتأثر لا محالة وقد مرض كثير من المعتقلين بالأمراض النفسية لما مر بهم من المحن والآلام والاضطرابات وعدم الشعور بالأمان والاستقرار فترى المعتقل يمشي متوتر الأعصاب يتحدث بلا تركيز يفكر بلا إطار ينظر بدون إمعان يأكل بلا ذوق يتريض بلا وقت يصلي بلا خشوع يقرأ بلا إتمام يطالع بلا فهم يندفع بلا هدف يسمع بلا وعي يتذكر بدون ترتيب تتقاذفه الآمال وتتصارع في نفسه المبادئ تشتد أنفاسه أحيانا وتفتر دقات قلبه أحيانا أخرى وتعلو محياه الكآبة مرة أخرى(عزوي، م. 1993: 90).

4 - بعض عمليات الفرار من المعتقل:

لقد استمر الكفاح والنضال داخل المعتقلات كلما تصاعد التعسف والقمع والتعذيب والترهيب من لدن الإدارة الاستعمارية وأصبح نزلاء المعتقلات والسجون يفكرون في إيجاد وسائل للهروب والالتحاق بصفوف الثورة من جديد خاصة وأن القوانين الداخلية لجيش التحرير الوطني تنص على أن المجاهدين إذا ألقى العدو القبض عليهم فإن واجبهم هو: عدم إفشاء أي سر من أسرار الثورة وأن يضعوا الفرار من سجن العدو أمام أعينهم باستمرار (بوالطمين، ج 1987، 157)، ولذلك نجد أن الأسرى من المجاهدين قد كانوا دائماً في بحث حول أساليب الفرار من المعتقلات الفرنسية، ولعل من أهم العمليات الناجحة فرار القائد مصطفى بن بولعيد من سجن الكدية بقسنطينة ليلة 11 نوفمبر 1955 صحبة رفاقه ومنهم الزيري طالبي، محمد العيفة، مشري شوقي وغيرهم ونجاح بعض المعتقلين في الفرار من معتقلات "بوسوي" و "أفلو" و "عين وسارة" وغيرهم (الأطرش م . 1984 : 92)، أما في معتقل قصر الطير فقد سجلت عدة محاولات فرار نذكر منها:

1- **عملية هروب سنة 1959:** التي قام بها مجاهدان في يوم اشتدت فيه الرياح والعواطف وأظلمت الدنيا من كثرة الأتربة التي حملتها الرياح حيث وضع المعتقلان أغطيتها على الأسلاك الشائكة وقفزا عليهما وتمكنا من الهروب ليلتحقا بجيش التحرير الوطني، أما رد فعل العدو فكان تسليط العقاب على بقية المعتقلين تطبيقاً لمبدأ المسؤولية الجماعية وتشديد المراقبة واللجوء إلى وضع أثقال حديدية في أرجل المعتقلين حتى لا يتمكنوا من الفرار مستقبلاً (عزوي، م. 1993 : 77).

2- عملية هروب سنة 1960: جرت هذه العملية في أوائل سنة 1960 في ليلة ممطرة كانت مصحوبة برياح قوية تسببت في إسقاط بعض أعمدة السياج مما شجع المجاهدان:عمار تريباش، وبين فريحة العيد على الفرار والتحقا بأحد المراكز التابعة للثورة سابقا ، إلا أن صاحب المركز وبعد أن أمنهما بالترحيب والتكريم وأثناء نومهما قام بالإبلاغ عنهما للقوات الاستعمارية فأعيدا إلى المعتقل من جديد(عزوي، م. 1993: 78)

3- عملية هروب سنة 1961: قام بهذه العملية أحد المعتقلين الذي اتهمه زملاؤه بالخيانة والعمالة للعدو فقاطعوه، فأحس بالغربة وتأثر نفسيا بالمقاطعة التي فرضت عليه ففكر في وسيلة تنقذه من المحنة فاهتدى إلى الهروب عن طريق الاختفاء في صندوق القمامة فنجأ و التحق بالثورة(بوالطمين ،ج 1987 ، 78).

4- عملية هروب سنة 1962: بعد التوقيع على اتفاق وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962م بدأ العدو الفرنسي يتغاضى عن محاولات الهروب ، بل وأصبح يشجع الموالين له في المعتقل على الفرار الانضمام على الثورة لتلميع صورتهم والتغفل في صفوف المجاهدين ومن ذلك فرار أحد العملاء المدعو "محمد أرزقي" في وضع النهار وأمام حراس المعتقل دون أن يعترضه أحد ، في حين تم إطلاق الرصاص على أحد المعتقلين عندما حاول الفرار عن طريق صندوق القمامة وألقي عليه القبض وأعيدا إلى المعتقل لأنه ببساطة لم يكن عميلا ولعله سيبلغ بالخونة على جيش التحرير الوطني (بوالطمين ، ج 1987 ، 80).

5- تصنيف المعتقلين:

إن المعتقلين في قصر الطير كانوا ينقسمون إلى أصناف ولا يعاملون بالمساواة سواء في المراقدة أو التغذية أو الأشغال لأنهم و بمجرد دخول هذا المعتقل تبدأ معهم عمليات غسل المخ التي كان يقوم بها خبراء في علم النفس (محمد، ق. 2007: 139) بهدف التعرف على طبيعة ونفسية المعتقلين والتي من خلالها يتم تصنيفهم على النحو التالي:

1- صنف المعتقلين المتصلين: يشمل هذا الصنف المجاهدين المتمسكين بالمبدأ الثوري والرافضين لسياسة فرنسا وهؤلاء يسلط عليهم العدو شتى أنواع التعذيب وهم معزولون عن بقية المعتقلين الشاقة أكثر من غيرهم وتسلم لكل واحد منهم، ورقتان وقلم ويطلب منهم كتابة كل ما يجول سواء ضد فرنسا أو لصالحها فمن قام بالكتابة يكافأ بسدس خبزة ومقدار كأس من الأرز وغطاء أما من امتنع من الكتابة فيحرم من هذه المكافأة حتى ولو رفض السجين الكتابة لمدة شهر وفي حالة تدهور صحته فينقل إلى مكان ما بمدينة سطيف للمعالجة حتى يسترجع قواه ثم يعرض عليه الانضمام إلى صفوف العدو ضمانا لصحته وسلامته من التعذيب إذا امتنع أو رفض يعاد إلى ما كان عليه من العذاب (بوالطمين، ج. 1987: 79).

2- صنف المعتقلين المترددين: وهؤلاء متذبذبون بين المولاة لسياسة فرنسا والأخذ بأقوال العدو وما يدعو إليه وبين الثبات على المبدأ الثوري وهذا الصنف من المعتقلين تراه يعاني من الاضطرابات النفسية ومن انفصام الشخصية أمام أسلوب الإغراء من جهة والترهيب من جهة أخرى. فلا يقدم رجالا ولا يؤخر أخرى (عزوي، م. 1993: 82).

3- صنف المعتقلين المؤيدين للعدو: وهم الذين انهارت معنوياتهم فاستسلموا للعدو وقبلوا الانضمام إليه والرضوخ إلى مطالبه ، فقد انتهجت إدارة المعتقل حيال هؤلاء أسلوب يتناسب وموقف الخيانة ، فأخذت تفرج عن البعض من أفرادهم لكن بشرط أن يستمر وفيا لخدمة فرنسا في أي مكان ومع أي كان والبعض الآخر تم استخدامهم في المعتقل كجواسيس ومساعدين للجلادين في تعذيب إخوانهم المجاهدين بل كانوا أشد قسوة من الفرنسيين أنفسهم لأنه افترض أمرهم ويأسوا من العدو إلى صفوف الثورة وبالتالي لم يبق أمامهم إلا التفاني في خدمة الإدارة الاستعمارية وأن يبرهنوا على إخلاصهم بتعذيب إخوانهم داخل المعتقل (الجنيدى، خ . 1986 : 406).

غير أن هناك مجموعة من هذا الصنف ورغم الأخطاء والتجاوزات التي ارتكبتها ضد المجاهدين داخل المعتقل قد عادت إلى جادة الصواب وانضمت مجددا إلى صفوف الثورة والفضل في ذلك يعود إلى تدبير مجاهدين مسؤولين في جيش التحرير كانوا معتقلين في قصر الطير وكان ذلك في سنة 1959 حيث اتفقوا على وضع خطة لمواجهة الموقف والعمل على استعادة بعض أفراد هذا الصنف إلى صفوف الثورة واقتسموا الدور حيث ضل أحدهم ثابت على المبدأ الثوري و متمسكا بموقفه الوطني، أما الآخر فمثل دور الذي اختار طريق الاستسلام للعدو ومجاراته في مشروعه على أن يتولى مهمة تحويل هذه المجموعة لصالح الثورة وتحضير عملية الفرار في الوقت المناسب وقد نجح هؤلاء المجاهدين في مساعدتهم و كالت الخطة يكسب فرقة مجاهدة ومسلحة تتكون من

ثمانين عنصرا انضمت من جديد إلى صفوف جيش التحرير(عزوي، م. 1993: 90).

خلاصة:

كشفت المعتقلات الفرنسية في الجزائر للعالم عن أنواع التعذيب والتشويه والتفكيك والتخريب النفسي للمعتقلين، وعدم احترام فرنسا لحقوق الأسرى وسجناء الحرب وتجاهلها لاتفاقيات جنيف وتكرها للمبادئ والقيم الإنسانية، فما وقع في الجزائر إبان الثورة التحريرية من تعذيب وتدمير وقتل وجرائم يبقى وصمة عار في جبين الدولة الفرنسية و يؤكد على طبيعة التواجد السلبي للفرنسيين في الجزائر، فكل تلك التجاوزات كانت بدعم و تحريض من قبل الحكومة الفرنسية. إن جرائم فرنسا في الجزائر وآثارها التي لا تزال ماثلة في الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، تبقى الحقيقة الثابتة التي تؤكد للأجيال الحاضرة واللاحقة، أن استقلال الجزائر إنما تحقق بفضل التضحيات الجسام والإيمان القوي بعدالة القضية الجزائرية والاقتناع بحتمية الانتصار واندحار الاستعمار ورحيله عن الديار.

المراجع:

1- الأطرش محمد الطاهر (1984)، المعتقلات والسجون الاستعمارية في الفترة ما بين 1 نوفمبر 1954 و20 أوت 1956، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر:الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة، المنظمة الوطنية للمجاهدين،الجزائر، 12ماي 1984.

- 2- الجنيدي وآخرون (1986)، حوار حول الثورة، الجزء الأول، منشورات المركز الوطني للتوثيق والصحافة والإعلام، المؤسسة للفنون المطبعية، الجزائر.
- 3- بوالصفاصاف عبد الكريم (1998)، حرب الجزائر ومراكز الجيش الفرنسي للقمع والتعذيب في ولاية سطيف مديرية ومنظمة المجاهدين لولاية سطيف، دار البعث، قسنطينة، الجزائر.
- 4- بوالطمين جودي الأخضر 1987، لمحات من ثورة الجزائر، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- 5- بوعلام نجادي (2007)، الجلادون من 1830 إلى 1962، ترجمة: محمد المعراجي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 6- بوشارب بلقاسم (1986)، نبذة تاريخية عن معتقل قصر الطير، مجلة أول نوفمبر، العدد 79.
- 7- محمد الدرعي (1997)، فضائح الجيش الفرنسي أثناء الثورة التحريرية، مجلة الرؤية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثروة أول نوفمبر 1954، العدد 3.
- 8- محمد لحسن أزغيدي (2004)، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني الجزائرية من 1956 - 1962، دار هومة، الجزائر.
- 9- محمد قنطاري (2007)، من ملاحم المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي، دار الغرب، وهران.
- 10- موسى تواتي؛ رابح عواد (1992)، هجوم 20 أوت 55، الجزائر، دار البعث.

- 11- سليمان الشيخ (2003) الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين، ترجمة محمد حافظ الجمالي، دار القصبة للنشر الجزائر.
- 12- عائشة شبلي (1991)، من فضائح المستعمر في معتقل قصر الطير، مجلة الجيش، العدد 341
- 13- عبد القادر ماجن (1988)، السجون والمعتقلات ومراكز التعذيب وضحاياها، مجلة أول نوفمبر، العدد 91/90.
- 14- عزوي محمد (1988)، المعتقلات في الجزائر أثناء الثورة التحريرية، مجلة التراث، جمعية التاريخ والتراث لولاية باتنة، العدد 3.
- 15- عزوي محمد الطاهر (1993)، ذكريات المعتقلين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر.
- 16- قوبي سامية (2002)، الممارسات الاستعمارية أثناء الثورة، مجلة الجيش، العدد 472، نوفمبر.